حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

دور الحجاج اللغوى فى قضية إثبات الألوهية

ندا رشاد عثمان*

معيدة بقسم اللغة العربية _ كلية الآداب _ جامعة عين شمس

المستخلص

يرتكز هذا البحث على الوسائل اللغوية التى يلقيها المرسل (المفسر) فى خطابه، والتى يرمى بها إلى بعض الأهداف الحجاجية، ذلك أن اللغة تحمل فى ذاتها وظيفة حجاجية اتخذها المفسر وسيلة لإقناع المتلقى (المنكر الغائب)، وفيما يلى سوف يتضح كيف أن اللغة اتخذت صورة حجاجية لافتة قصَدَها المفسرون لإقناع جمهور المتلقين؟

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٨.

الرؤية الحجاجية لدى المفسرين:

تتناولُ الدراسة التفاسير باعتبارها نصوصًا موضِحة لمقاصد القرآن وأهدافه، التى لا تخلو من مقاصد حجاجية فى المقام الأول؛ لكنها ليست المقصد الوحيد للتفاسير فهى فى الأساس مُكون ضمن عناصر مُختلفة من السياقات البنيوية والدلالية وغيرها من العناصر التى يقوم عليها الخطاب.

فالمفسر أثناء قيامه بعملية التفسير لا يخلو ذهنه من قصدية حجاجية مُوَجَّهة إلى المتلقى الغائب فهو يهدف لإظهار مقاصد القرآن وأحكامه وعقائده التى كان من أسمى أهدافها تحويل الاتجاهات وتغيير المعتقدات، وبناء مجتمعات جديدة تقوم على أسس ومبادىء الإيمان والصدق والعدل فى مقابل الكفر والكذب والظلم، فالهدف الأول للنص القرآنى المقدس هو (الحجاج) حيث يحمل فى طياته خطابات قصدية تستهدف المؤمن الذى اقتنع بمادئه، وكذلك تستهدف الكافر الذى ألحد به وبخالقه وبهذا لا يكون (الحجاج) هو الهدف الوحيد الذى عكف عليه المفسر؛ إنما كان ضمن أهدافٍ كان الأبرز فيها.

ومن أهم الخصائص الحجاجية فى التفسير أنه قائم على فكرة التعدد والاختلاف من حيث تنوع التفاسير، ومن حيث اتجاهات المفسرين واعتقاداتهم؛ فكل مفسر يعرض حجته بهدف الغلبة والانتصار على المتلقى (الغائب الجاحد) بوجود الخالق فنجد فى تفسير الآيات التى تتضمنها الدراسة صورة المناظرة بين المفسر والمتلقى (المنكر) و ذلك بإظهار حجج كل فريق من الإثنين، إذن فالخطاب فى تلك الآيات قصدى يهدف التأثير فى ذهن المتلقى، والذى هو الهدف الأسمى من أى حجاج ناجع يروم إلى تحويل وجهات النظر.

وفيما يلى سوف نقوم بتطبيق الآليات الحجاجية اللغوية على أقوال المفسرين المتعلقة بقضية (إثبات الألوهية) موضوع الدراسة لمعرفة كيف تحولت اللغة إلى الوظيفة الحجاجية لعرض الموضوع وإقناع جمهور المتلقين بها ؟

١.ألفاظ التعليل:

وتعد ألفاظ التعليل من الأدوات التى يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجى، وبناء حججه فيه ومنها: لفظة (لأن)، وكلمة السبب، واللام، سواء كانت لام التعليل أو لام الجر أو لام الأمر [١].

ومن أمثلة ذلك ما نجده عند الزمخشرى فى تفسير سورة التغابن (آية ٢):

يقول فى قوله + فمنكم كافر ومنكم مؤمن "

(فمنكم كافر ومنكم مؤمن، وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم) [٢]

فنجد الزمخشرى هنا استعمل (لأن) لتحديد وجهته الحجاجية فى تفسير الآية فهو يوضح لماذا قُدَم الله الكافر على المؤمن، أو قضية الكفر على قضية الإيمان، فيدلى الزمخشرى بدلوه فى المسألة ليبين الاتجاه الحجاجى للمسألة، وهى مسألة انتشار الكفر والإلحاد فقال أنه تقدم؛ لأنه الأغلب والأكثر، فقامت (لأن) هنا بدورها الحجاجى وتبرير الفعل لدى المرسل فى أثناء تركيبه لخطابه الحجاجى.

وجاء فى روح المعانى للألوسى فى تفسير سورة النمل (آية ٥٩):

يقول + وأنزل لكم " التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى. لتشديد التبكيت والإلزام، واللام تعليلية [٣].

فقد استعمل الألوسى اللام هنا استعمالاً حجاجيًا حيثُ أراد بها تقديم حجج الدعم لدعوى (تبكيت الكفار) المنكرين لخلق الله؛ فجاءت اللام هنا داعمة لدعوى التشديد عليهم، ولولا بغية تحقيق هذه النتيجة لمَا استعملها.

٢.الوصل السببى:

وهو أحد أدوات التعليل؛ حيثُ يعتمد المُرسل على الربط بين أحداثٍ متتابعة؛ عن طريق ربط المقدمة بالنتيجة وجعل النتيجة مقدمة لقضية ثانية.[٤]

مثال: أشار الزمخشرى لتلك النقطة أثناء تفسيره لسورة التغابن (آية:٢).

يقول: "قلت:قد علمنا أنّ الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعله، فوجب أن يكون حسنًا، وأن يكون له وجه حسن؛ وخفاء وجه الحسن علينا لايقدح فى حسنه، كما لا يقدح فى حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها".[٥]

فالعلم بأن أفعال الله حسنة هو نتيجة لأن الله عالم حكيم، وهو فى نفس الوقت مقدمة حجاجية لخلق الله للقبح والقبيح، وأيضاً يصبح مقدمة؛ لأن خفاء وجه الحُسن فى القبح لا يقدح فيه؛ لأن معرفتنا قاصرة، وعلى هذا فإن الوصل بين المقدمة الأصل والنتيجة هو وصل تتابعى بين (حكمة الله) بوصفها القضية الأساس، وخفاء وجه الحُسن فى القبيح هو نتيجة له.

وقدم الرازى مثالاً مشابهًا فى تفسيره لسورة البقرة ، ففى أثناء تفسيره لقول الله تعالى:

+ فإن ءامنوا بمثل ما أمنتم به فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم "

يقول: " قال الملحدون: لا نسلم أن هذا معجز، ذلك لأن؛ المعجز هو الذى يكون ناقضًا للعادة، وقد جرت العادة بأن كل من كان متبلى بإيذاء غيره فإنه يقال له: اصبر فإن الله يكفيك شره ".[٦]

فعدم تسليم المُلحدون بإعجاز قول الله (فسيكفيكهم الله) هو مقدمة لقضية أن المعجز هو الخارق للعادة التى هى فى نفس الوقت مقدمة للقضية أو النتيجة الكبرى أن كل مبتلى يقال له اصبر فإن الله يكفيك شر العدو.

٣.التركيب الشرطى:

وهذا التركيب أدعى لتكوين حُجج متوالية مرتبطة جميعها بالحجة الأولى.

فجاء عند الرازى فى تفسيره سورة الأنعام.

يقول: " ويقال لكل من أعرض عن الحق إلى الباطل أنه رجع إلى خلف ورجع على عقبيه ورجع القهقرى، والسبب فيه أن الأصل فى الإنسان هو الجهل، ثم إذا ترقى وتكامل حصل له العلم "

قال تعالى + والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة "

" فإذ أُرجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع لأول مرة "[٧].

فقد ورد الحجاج هنا فى سياق التركيب الشرطى المضمر الذى يوضح العلاقة المنطقية المتلازمة بين طرفين الأول هو حصول الجهل الذى هو بداية الخليقة، والذى ينتفى بترقى الإنسان، ولكن لو تُرك دون العلم يعود لأصل خلقته الجاهلة.

فهذه العلاقة الشرطية المضمرة فى الخطاب تجسد دوران العِلة مع المعلول؛ فتوجد بوجوده، وتنتفى بانتفائه، وهو ما يسميه (بيرلمان وتيكاه) بالحجة التداولية فهى الحجة التى تمنح فرصة لتقويم العمل وذلك بالنظر لتتابعها المرغوب أو غير المرغوب ويتجاوز استعمالها إلى توجيه السلوك والفعل المُستقبلى.[٨]

٤.الأفعال اللغوية أو أفعال الكلام:

لقد سبق الإشارة إلى أنّ الأقوال فى اللغة العادية لا تستعمل للوصف أو الإخبار فقط، وليست خاضعة للصدق والكذب وهذه الأقوال سماها أوستين – فى أثناء حديثه عن كيفية تحويل الكلمات إلى أفعال – بالأقوال الإنجازية ((Les Performatifs)) وهذه الأفعال اللغوية تسهم بأدوار مختلفة فى الحجاج؛ فكل نوع من أنواع هذه الأفعال يقوم بدور محددٍ بين طرفى الخطاب، وتترتب بحسب الاستعمال؛ فالمرسل يستعمل أغلب أصناف الفعل التقريرى ليعبر عن وجهة نظره محل الخلاف، فالهدف من الخطاب هو الذى يوضح دور هذه الأفعال فى النص الحجاجى، وهذه الأفعال أطلق عليها البلاغيون ((الجمل الإنشائية)) والتى تتحقق فى السؤال والأمر والتهديد، وهذه الجمل لا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب حيثُ أنها لا تصف واقعًا؛ ولكن النطق بها يشكل فعلاً معينًا إذن للأقوال فى حياتنا اليومية جانبان:

١. جانب لغوى.

٢. جانب فعلى. [٩].

والجمل الإنجازية يمتزج فيها القول بالفعل من أمثال:

- أفعل الخير.

فهذه جملة إنجازية من الدرجة الأولى، حيثُ جاء فى ثناياها نشاطًا فعليًا سيدفع المُرسل إليه يقول بالفعل نظرًا لسلطة المرسل فى توجيه الخطاب.

ودور الأفعال اللغوية يتجاوز الدور المساعد فى تركيب الخطاب فقد يستعمل المرسل (المفسر) الاستفهام أو النفى على أنه حُجَّة بعينها، كما جاء عند الزمخشرى فى تفسيره سورة الأنبياء

(آية: ٣٣) + وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌ فى فلك يسبحون "
(كُلٌ): التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، أى: كلهم (فى فلك يسبحون) والضمير للشمس والقمر، المراد بهما: جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها، والسبب فى جمعها لشموس وأقمار، وإلا فهى واحدة وإنما جُعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.
فإن قلت: الجملة ما محلها.
قلت: محلها النصب على الحال من الشمس والقمر.
فإن قلت: كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما ؟
قلت: كما تقول: رأيت زيدًا ،وهندًا متبرجة ،وذلك نحو إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل [١٠].

الاستفهام:

فقد قدم الزمخشرى هنا أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجًا وهو (الاستفهام) لكى يؤكد حُجّته فى بلاغة الآيات فى التعبير عن قدرة الله فى خلق الشمس والقمر فى فلك متجدد يوميًا؛ فعرض الفقرة السابقة فى هيئة أسئلة متكررة، ليثبت وجهة نظر نحوية يراها فى الآية تضفى تأكيدًا على قدرة الله تعالى فى خلق الشمس والقمر.

فهو بذلك التحليل النحوى يدفع المتلقى لقبول وجهة نظره؛ لأنها أولًا: مدعومة بالأدلة ثانيًا: جاء بها فى هيئة أسئلة استفهامية تقريرية حيث أنها أشد إقناعًا للمرسل إليه، وأقوى حجة عليه من عرض وجهة نظره مباشرًا دون الاستفهام.

النفى:

وللنفى أيضًا نفس الدور الحجاجى الذى اضطلع به الاستفهام ففى تفسير سورة الروم (أية: ٢٢).
+ ومن ءايته خلق السموات والارض واختلف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لأيات للعلمين"
الألسنة: اللغات أو أجناس النطق، خالف عزوجل بين هذه الأشياء حتى تكاد تسمع منطقين متفقين فى همسٍ واحد، وجهارة واحدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق.[١١]

فكل نفى من الأقوال المنفية السابقة يمثل حُجة فى حد ذاته يتوجه بها المفسر لإثبات اختلاف الألسنة فى كل شئ، فكل نفي يقصد به تلميحًا حُجة لتأكيد تعدد اللغات وتباينها فى أدق التفاصيل، والتى هى من صُنع الخالق القدير سبحانه.

ومثله ما جاء فى تفسير المنار فى تفسير سورة هود (أية: ٦)
+ وما من دآبة فى الأرض إلا على الله رزقها "
" أى عليه وحده فإنه لم يشاركه فى خلق رزق هوامها وأنعامها وطيرها ووحشها وإنسها وجنها –أحد من الأنداد الذين اتخذهم المشركون، ولايشاركه أحد منهم فى تسخير هذا الرزق لها، ولا فى إيصاله إليها بشفاعة ولا وساطة أخرى بينه وبينها فلذلك لم يشرك به أحد منها ولا من غيرها من خلقه غير بعض الأنس والجن المكلفين " [١٢]

فقد استعمل رشيد رضا هنا سياق النفى المتتابع فى صورة حجج متتالية لتأكيد وحدانية الله تعالى، وأنه هو الرازق وحده لجميع الخلائق ،فلا يشاركه أحد فى إيجاد الرزق، ولا فى إيصاله لخلقه؛ لذلك هو المنفرد سبحانه بالعبادة دون غيره من الأنداد الواهية.

٥.الحجاج بالتبادل:

وهنا يستعمل المرسل هذه الآلية ليصف وضعًا معينًا ينتمى لسياقين متقابلين، وذلك ببلورة علاقات متشابهة بين السياقات. (١٣)

كما فى تفسير الطباطبائى لقوله تعالى: + وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين "

فهذه الآية دلت على أن أفعال الإنسان الإرادية وإن كانت بيد الإنسان بإرادته لكن الإرادة والمشيئة ليست بيد الإنسان؛ بل هى مستندة إلى مشيئة الله سبحانه (١٤)

فقد أسند المرسل الإرادة للإنسان؛ لكنه عاد ليثبت أنها ليست كاملة له بل هى بيد الله ثم يأمر بما يشاء فيختار الإنسان وهذا النوع من الحجج المتقابلة يوضح محل الخلاف وهى قضية (المشيئة)

فقد أسند له المشيئة والاختيار ثم يسلبها منه مباشرة؛ ليؤكد على أنها ليست مطلقة بل هى مقيدة بإرادة الله وتقديره، فقدرة الإنسان ومشيئته رهينة بتقدير الله، وبذلك استعمل المفسر سياق المقابلة بين الحرية والجبر للتأكيد على حجته فى تقييد الإرادة البشرية.

٦. الوصف:

يعد الوصف من الأدوات التى تُمثل حُجَّه المرسل فى خطابه، وذلك بإطلاقه لنعتٍ معين فى سبيل إقناع المرسل إليه، مثلما وصف الطاهر ابن عاشور العلماء بأنهم غير مأمورين بفعل مافعله علماء بنى اسرائيل (١٥)، يقول:

((فعلماؤنا منهيون على أن ياتوا بما نهى عنه بنو اسرائيل من الصدف عن الحق لأعراض الدنيا ، وكذلك كانت سيرة السلف، ومن هنا فرضت مسألة جعلها المفسرون متعلقة بهاته الآية، وإن كان تعلقها بها ضعيفًا وهى مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن(١٦)

اتجه المفسر من خلال الصفة إلى إقناع المرسل إلية بفكرة ضلال علماء اليهود وأن علماء المسلمين (منهيون) كما وصفهم عن فعل مافعلوا من معرفة الحق والتغاضى عنه؛ لأجل أعراض الدنيا، وكذلك ينوه المفسر على بعض المسائل المتعلقة بهذا المعنى، لكن يظهر وجهة نظره فى إدراج تلك الأفكار تحت هذا المعنى بوصفه لها بـــ (الضعيفة) فهو يرى أن المسائل التى سيدرجها تحت هذا العنوان ترتبط ترابطًا ضعيفًا بنسبته للموضوع المطروح ، ومن هنا تتمثل الصفة كأداة حجاجية يوظفها المُرسل وذلك بإظهار معنى تقويمى تقترح فيه النتائج والفرضيات مبتعدًا عن المعانى المعجمية، وذلك لمحاولة توجيه انتباه المرسل إليه إلى مايريد أن يقنعه به من حجج، ذلك أن اختيار الصفات يكشف لنا عن وجهة نظرنا تجاه موضوع ما.

٧. تحصيل الحاصل:

فبعض الخطابات مليئه بالحشو وتحصيل الحاصل الذى لايطرح جديداً فى الخطاب، إلا أن لكل جزء من الخطاب المكرر دلالات حجاجية تكشف عن وجهة نظر المرسل فى القضية مثلما نجد عند سيد قطب فى حديثه عن الفطرة ، يقول:

"وما المحاولات التى تبذل لتحطيم هذة القاعدة إلا محاولة لتحطيم الفطرة البشرية فى أساسها، وإلا تكلف وقصر نظر واعتساف فى معالجة بعض عيوب الأوضاع المنحرفة وكل علاج يصادم الفطرة لايفلح ولايصلح ولايبقى "(١٧)

فالمفسرهنا يؤكد على سلامة الفطرة وأن المحاولات التى تبذل لتدمير هذة الفطرة هى محاولات فاشلة من – وجهة نظر المفسر – فيصفها بالتكلف وقصر النظر والتعسف. وهذة الأوصاف لتغير الفطرة ليست من سبيل التكرار أو الحشو، لأن كل كلمة منهم لها

دلالة معينة، فالتكلف فيها إفادة للمبالغة والتهويل وأما قصر النظر فقد أفادت أن مغيرى الفطرة متصفون بقصر النظر وعدم التعمق فى الأفكار؛ لكى يصلوا إلى هذه النتيجة، وأما التعسف ففيه إفادة السرعة وعدم التأنى، فكل لفظٍ أفاد معنى لم يؤدّه اللفظ الآخر.

كذلك وصف المفسر أن العلاج المتصادم مع الفطرة (لايصلح /لايفلح / ولايبقى) فلفظة لايصلح ولايفلح فيه إفادة لعدم حسن الاختيار للعلاج.

أما (لايبقى) أكدت على ضعف العلاج ولذلك حكم المفسر بعدم بقائه لردائته إذن ليس هناك مايسمى (بالحشو) داخل الخطاب فى وجهة النظر الحجاجية التى ترى أن كل لفظٍ فى الخطاب يكشف عن أبعاد حجاجية إقناعية يبُثها المرسل فى نفس المتلقى.

Abstract

The role of linguistic argument in proving divinity issue

By Nada Rashad Osman

This research is based on linguistic means delivered by a speaker "interpreter" in his speech to achieve some aims.

That's because the Arabic language has an argumentative function taken by an interpreter as a means to persuade the audience.

The following will show that the Arabic language has tackled argumentative matters adopted by interpreters in order to convince the audience.

الهوامش

(١) ظافر الشهرى، استراتيحيات الخطاب، بنغازى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١،٢٠٠٤ صـــ٤٧٨.

(٢) الزمخشرى، الكشاف، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨ج ٥، صـــ١٣٢

(٣) الألولسى، روح المعانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ج٢٠، صـــ٤، سورة النمل ٥٩.

(٤) اتسراتيحيات الخطاب صـــ٤٨٠.

(٥) االكشاف صـــ١٣١.

(٦) الرازى، مفاتيح الغيب ، القاهرة، دار الفكر، ط ١ ،١٩٨١، ج٤ ،صـــ٩٤.

(٧) مفاتيح الغيب، ج١٣، صـــ٣١.

(٨) استراتيجيات الخطاب صـــ٤٨١.

(٩) أنظر، أبو بكر العزاوى، اللغة والحِجاج، الدار البيضاء، العمدة، ط١، ٢٠٠٦ صـــ١١٨: ١٢٠.

(١٠) الكشاف، صـــ١٤٣، سورة الأنبياء: ٣٣.

(١١) الكشاف، ج، صـــ٥٧١، سورة الروم أية: ٢٢.

(١٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١٢، سورة هود أية: ٦ ١

(١٣) استراتيحيات الخطاب صـــ٤٨٦.

(١٤) الطباطبائى، الميزان فى تفسير القأن، بيروت، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ط١، ١٩٩٧، صـــ٨١، ج١، سورة البقرة.

(١٥) استراتيحيات الخطاب صـــ٤٨٧.

(١٦) الطاهرابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ج١، صـــ٤٦٦.

(١٧) سيد قطب، تفسير الظلال ، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٧٢، ئويؤ صـــ١١٠.

المصادر

(١) الألولسى، روح المعانى،، بيروت، دار إحياء التراث العربى

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ، القاهرة، دار الفكر، ط ١ ،١٩٨١

(٣) الزمخشرى، الكشاف، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨ج

(٤) الطاهرابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤

(٥) الطباطبائى، الميزان فى تفسير القأن، بيروت، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ط١، ١٩٩٧

(٦) سيد قطب، تفسير الظلال ، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٧٢

(٧) محمد رشيد رضا، تفسير المنار

المراجع

(٨) أبو بكر العزاوى، اللغة والحِجاج، الدار البيضاء، العمدة،ط١، ٢٠٠٦

(٩) ظافر الشهرى، استراتيحيات الخطاب، بنغازى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١،٢٠٠٤